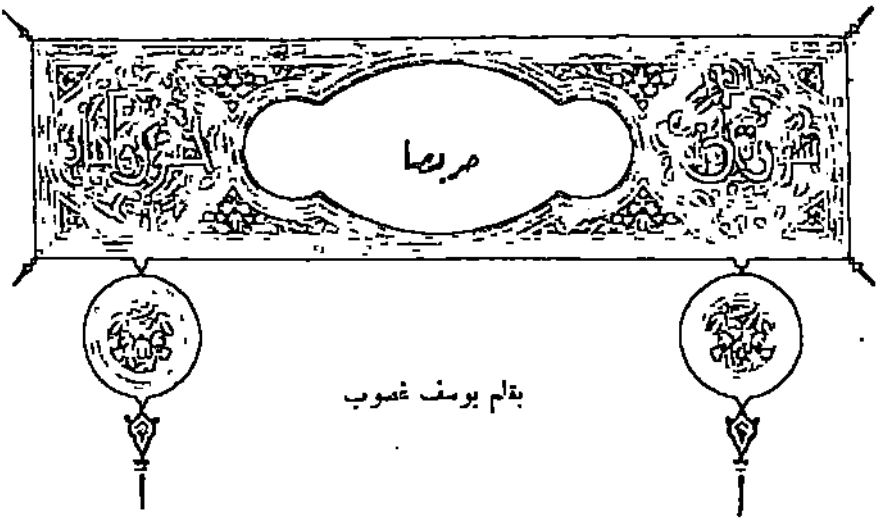

بقلم يوسف غصوب

لا تزال الشمس وراء صنين ، ولا تزال الطبيعة في رقدة الفجر . هدوء وسكينة الا بعض اصوات تدوي بغتةً ، ترسلها الديوك متجاوبة ، متداعية في الصباح. واذا أصاخ الساري سمع دبيب الامواج في فُرضة «جونية» ، وأحسّ وقع خطو المُكارين الغادين ، وجرس جلاجل دوابّهم.

نحن عُصبة من الشبّان في سفح جبل «حريصا» ، نتغلغل في الطريق الصاعد الى تمثال العذراء ، بين الصنوبر الغضّ وأريج الصعتر الفوّاح ، طريق مُنعرج بين الاشجار والصخور ذي طيّات وليّات لا يمرّ فيه اثنان معاً ، وان لم يعتمد الصاعد الاغصان زلّت به القدم على ريش الصنوبر المتراكم.

كنّا نرتفع في هذه العَقَبة ، وفي يد بعضنا السُبحة يهمس حبّاتها زفرات التعب. وكان النور يرفع ستار الليل رويداً رويداً ، فنلتفت من حين الى حين لنشهد ما تركنا وراءنا من بدائع الطبيعة عند نهوضها من سُباتها . فكان البحر يتسع ويتموّج بالألوان الشاحبة ؛ وكانت البيوت تبرُز من مخبآتها بيضاء معمَّمة بالقرميد الاحمر ، بين الجنان الخضر والطرقات الغبر. ثم اخذت الطير في تشابيب تغاريدها مضطربة خائفة . وأمامنا الجبل منتصب عالياً اسود تحت ردائه الصنوبريّ ، وفي أعلى قنّته سهام من النور تنفُذ لامعة كأنها قشة دقيقة ملوّنة.

ونحن نتوغّل في الجبـل ، نسقط تارةً ونعلق طورًا في اغصان العوسج ؛ وأفكارنا متجهة الى العذراء الباسطة يديها فوق قمة حريصا ، تبارك لبنـان وتتوّج مناظره الرائعة ؛ والصبح ينشر مُلاءته اللؤلؤية في فضاء واسع ، وآفاق متباعدة .

وما زلنا نرتقي حتى بلغنا القمة . فغمرتنا الشمس ببهائها ، فلم نأبه لها ، بل طرنا سراعًا حتى صرنا عند قدمي العذراء ، فوقفنـا عندئذٍ خاشعين واجمين تتنازعنا عوامل التُقى ومشاهد الطبيعة الساحرة .

أنّى نمد اللحظ نرَ جمالًا ورونقًا : صنين تحت ردائه الابيض الناصع يُشرف علينا من علاه ، والروابي تترائى متدانيـة من سفحه كالدرج العظيم ؛ والبحر منبسط تحت انوار الضحى كالمرآة المكسرة تبرق وتلمع ؛ وفي الافق بيروت الحمراء جاثمة على الشاطئ بين زُرقـة البحر وخُضرة الصنوبر ؛ وتحت نهرى أقدامنا جوانية مذرية في جُوفها نكاد على علوّنا عنها نمد يدنا فنتناولها .

وهناك قمم عديدة تحف برابية حريصا على معظمها اديرة وكنائس تضجّ قُبيها بأصوات الاجراس المتهادية فوق الاودية والقرى .

ثرى كلّ منا عند العذراء ، ورفع قلبه الى السماء ، ومجّد الخالق ، وأرسل لتأملاته العنان . فكأنّ الارض قد اضمحلّت ، وكأن العالم المحسوس قد تلاشى ، فلم يبق من مجـال الا للارواح فوق تلك الاعالي ؛ وكأن العذراء قد سكبت من طُهرها في صدورنا ، فكنّا نحسّ بخفّة وسكينة علوية وراحة نفسانية يختفي معها كل ألم وعذاب . . .

* * *

ولما آن وقت النزول بُنتنا كمن افاق من حلم جميل .